من وحى القمة القاصية :

قطيع الصيف فى باريس

للدكتور على شرف الدين

فى كل عام — وفى مستهل الصيف خاصة — يقبل على باريس هذا القطيع من أطراف أوروبا . مختلفات الجنس واللغة، متباينات الأعمار والثقافة ، فى عيونهن فرارة ، وخلف الأجفان مستقبل حافل بالدموع ، ما عرفته ولا فكرن فيه، وفى إشارتهن براءة ، وما تصيب الفواجع غالبا غير القلب البرئ ، كأنما تحب السماء هذه القلوب ، فهى تمتحنها بالآلام لتزيد فى طهارتها قبل أن ترفع إليها

أطلقهن الرعاة من مراعيها الآمنة ، رأيتهن — وهن الناشئات — أن يقبل عليهن المساء ؛ وهن فى غير مراح الحقل بعيدات عن سمع الراعى ونظره ، وما بالغ من أطلقهن فى الثقة ، ولا أسرف فى حسن الظن ، ففى قلوبهن من وحى الفطرة الأصيلة عصمة ، وفى آذانهن من ترانيم الكنيسة صدى رائع يغلب كل الأصداء ، ولكنها سنة الشباب والحب ، جديدة فى كل عصر ، وإن أعادت نفس القصة فى كل جيل

أقامت لهن باريس معارض للفن ومنـــاهل للأدب ، وحشدت لهذا أقوى ما يأسر النفس والعين . يمضى الصيف وهى مع الرعيـل فى الغـدو والرواح ، يهديهـا رسول الأمن فى الجماعة ، ويملأ عينها نور الفرح بما ترى وتسمع ، لا تابى غير نداء المعرفة، ولا تنشى غير الوطن الآمنة ، فى صالات الموسيقى، وفى لكسمبور ، وتحت قباب البانثيون . . .

فإذا تقدمت بهن الإقامة رأيت شيئا جديداً : رأيت أن القطيع قد استحال إلى أسراب ، ثم استحال السرب أخيراً إلى « القمة القاصية » ؛ ولكن فى سحنة جديد ، ولا تشك حين تراهما فى أن ملا كا يحرس هذا الحب الجديد ، فما تزال سمات الفطرة فى الوجوه تنادى بنبل العاطفة ، وما يزال فى العيون شعاع يكشف عن قلب برئ . ومن ذا الذى لا يبارك على حب تذكيه غرارة السن ، ويرعاه من العاطفة ميل ساذج صريح ؟

ويمضى الصيف فيبقى نصف القطيع قائما فى باريس لا يريم . ويتقدم الزمن قليلا ، فإذا جدة الحب قد أخذت تبلى، وإذا بهجة اليسار قد أخذت تنطفئ ، ليأخذ مكانها ظلام الحاجة، وإذا هذه الفلائل البيضـاء التى كانت ترف بالأمس على هيا كل من النور كما يرف جناح الحمائم الصابحة فى صبح الربيع — قد استطال الفقر فى ذيولها ، كما استطال الحزن والألم فى هياكلها . بقية من جمال يغزوها الهم الناصب ، والضنى الملح، فى انتقال مفاجئ من حياة إلى حياة ، ما أبعد كلا منهما عن الأخرى

هذه المدللة التى أكرمها الفلاح ، وأقامها فى الحقل (الآمن) تستملى حياة الدعة والسعادة ، وتضفى على الحقل ربيعا أجمل من ربيع مروجه ، قد أصبحت تعمل فى حقل آخر ، عمل الأجير لا المالك ، ويهولك ما ترى حين ترى أن هذه المدللة التى لم تجاوز العشرين قد أخذت تؤجر فى الحقول . . . لم تعد تصغى للموسيقى ولا تنشى محاضرة ، ولا تحفـل لهذا التاريخ الرابض فى معالم باريس ، ولكنها فى مقاهى سان جرمان مع الفاضيات من الأهل ، الساخطات على الحياة ، وأخيراً فى كهوف الليل الحمراء على ضفة السين ...

إن لها شخصية كما يدعى صاحبها الذى أطلقها من المرعى « الآمن » فهو لا يسأل — ولا يجب أن يسأل — كيف تعيش ؟ وهى « الحضرية » المدللة التى ما عرفت العمل ، وما خلقت إلا لتضفى النور على ما حولها ...إنها شخصية تمنحها إياها الحضارة فى تمام العشرين ، وقد نسيت الحضارة أن الزهرة هى الزهرة ، فى أول الربيع ، وفى عنفوانه ، وفى نهايته ، وأن الطبيعة عرفت هذا فنثرت من حولها الشوك لترهب القلوب الطامعة ، وتدفع الأيدى عن جناها . وتمر بك هذه المدللة التى كنت تسعد بالنظر

إليها . فتعاف أن تراها رحمة وإشفاقا ، ولكأن هذا العربي قد أرادها في هذه الصورة القوية من شعره

كنت مشغوفا بكم إذ كنتم شجراً لا تبلغ الطير ذراها
لا تبيت الليل إلا حولها حرس ترشح بالموت ظباها
وإذا مدت إلى أغصانها كف جان قطعت دون جناها
فتراخى الأمر حتى أصبحت هملا يطمع فيها من يراها

ويح المسيحية وويح الشرق منك يا أوربا ! ألا تذكرين حديث « الغنمة الضالة » في الإنجيل ؟ ألم يطالب إلى الراعي أن يبحث عنها حتى ولو تعرض القطيع كله للضياع ؟ إنه يعلمك كيف تكون القيم الإنسانية عندك خيراً من « المصلحة » وكيف تحرصين على الاستجابة لهواتف الروحية ، وإن لم تدع إليها « المنفعة » . إن القطيع من غير شك خير من الواحدة ، ولكنها الساعة الرحيمة التي تكسر كل مقاييس الموازنة ، وتحطم كل موازين المقارنة

هي إذا « الشخصية » أو « الحرية » أو « سن الرشد » وغير هذا من الكلمات التي تزعجينها في بطون القواميس — تقيمين منها قانونا حين شعرت بالاستخذاء والظلم ، سن الرشد !! المعروف أو سن الرشد الحقيقية تبتدئ منذ الميلاد ، وتنتهي غالبا قبيل العشرين أو عندها ، وعند العشرين تبتدئ سن الرعاية واللاحظة . . .

على أن لك في سن الرشد رأيا غريبا — رأى يتغير حسب المصلحة والعصبية الشعوبية : تعطين سن الرشد للأفراد ، وتحرمين منها الجماعات ، تعطينها للغنمة القاصية وتمنعين منها الجماعة تستمد القوة والرشد من جماعتها وائتلافها . لكم تعمدين إلى القطيع تمزقين من وحدته حتى استحال إلى غنمات قاصية لا تكاد إحداها تسمع نداء الأخرى ، ثم زعمت لنفسك عليها سلطانا في دعوى باطلة مزورة ، تارة (برسالة الحضارة) وأخرى بأنها لم تبلغ سن الرشد ، وقد كان في اجتماعها وتآلفها الرشد كل الرشد ، ولكنها المصلحة التي أنكرت فيها حقوق الإنسانية ويح المسيحية وويح الشرق منك يا أوربا !

أسرفت في السرور حتى قتلت في نفوس أبنائك الإحساس بالسرور ، وأقمت للوثنية هيا كل مكذوبة ، تقدمين لها قرابين دامية ، هي أشلاء ضحيتك ممزق في معركة صرعت فيها (المنفعة) كل هواتف الروح ، وما رضيت أن تشهدي وحدك هذه الأصنام بالأمس في قصر شايو ، ولكنك تدعين معك قرائس السياسة ، وغنائم القوة ، ليشهدوا مصارع حقوقهم وأمانيهم . . .

حتى (الإنيسكو) هذا الرجل الوقور ، سخرت منه أوربا و (ضحكت عليه) فغرزت في عمامته أعلام الشعوب ترفرف متساوية متكافئة . نعم نعم ترفرف متساوية متكافئة في (الهواء) تقولين له : (ما أحوجنا إلى رأيك في التربية والتعليم) ثم تسرين له في أذنه : (رسالتك شاقة ، وإنك لتعرف ما بين السطور ، فكن ماهر النفاذ ، لطيف الأداء ، فما أحوجك إلى (الكياسة) لتصل من التربية إلى (. . . .) فيبتسم هذا الرجل الوقور بينما ينسكب أطراف لحيته المستعارة « إنني خبير (بالسجمة) المفقودة ، وما أيسر أن تجمعهم على ضرب واحد من التعليم ، ومنهج متحد من التربية ، حتى تلتقي الأهواء ، وتتآلف النزعات ، وهناك تتم (السجمة المفقودة) ، وقد نسيت أوربا ونسي معها هذا الرجل شيبه الوقور أن الشعوب لم تكن شعوبا لأن الأنهار تفصلها أو لأن الجبال تحد مابين تخومها ، ولكن الشعوب كانت شعوبا لأن لكل شعب أمنية يفيض بها قلبه ، أمنية تستغل حياته وتأخذها من أقطارها لا تلبث أن تستحيل إلى مادة حية في أغنية خالدة مقدسة . مالي أنسيت الحديث ؟ لقيتها مرتين مواظبة على محاضرات (أحلام ممتزل) لجان جاك روسو . إنها تلتمس عنده في ساعات عزلته ، ما يمسح على جراح نفسها . إنها قد نسيت الماضي ، الماضي البعيد والقريب ، وما كانت تحب أن تثير هذي الذكرى ، فإنها قد تجاوزت منطقة الألم ، واستراحت إلى نسيان يوشك أن يسبغ الطمأنينة والهدوء على قلبها ، وكانت نفسها صحيحة لم تكسر ، مشرقة لم تنطفئ ، وإن كان يسبح في جبينها الهادئ شعاع

شاحب ترف على حواشيه ذكريات خافتة ، تدافعها بالصبر والأمل ، وقوة الإيمان بحياة جديدة

وكان شأني يضيق بمعاونة تغذيها ، ولم أجد غير سيدة تركية هي وزوجها مثل عال لحضارة الإسلام في باريس ، قلت لها : إنها كما ترين حزينة كسيرة وما أحسبها تحسن الكثير من عمل المنزل ، وما أحسبها إلا حملا عليك ان تضيقي به ، ولها من ثقافتها في منزل شرقي ما يهيئ لها الحياة فيه ، فطالعت السيدة أسارير وجهها ، فلم تشهد تمردا ، ولم تر أثرا لهذه النكسة التي تطبع على وجوه المغلوبين في حياتهم الساخطين عليها ، فابتدرت قائلة (فابقى إليها منذ اليوم) ثم استدركت مستعجلة (معلمتها لا خادمتها) ثم التفتت إلى زوجها كمن تطمئنه على نهوضها بحياتها (وعندي لها من ستسعد بهن ويسعدن بها ، ولن تضيق بحياتها من نشأت في سويسرا الفرنسية . .)

مضت أيام لقيتهم بعدها ، وكان السيد التركي كعادته يقضي الساعات في مكتبته ، رأيته أشبه ما يكون بالمستغرق في حلم . فلم أشأ أن أقطع عليه تأمله ، حتى انتبه متهلل الوجه مسروراً « إنه شعر حسن جميل » قلت لمن ؟ قال لشاعر تركيا ارف حكمت الهرسكي ، ثم أقبل يقرأ ، ولكن صوتا آخر قطع عليه قراءته ، صوت أحسب أني سمعته قبل اليوم ، فاتجهت نحوه فإذا في الحجرة القريبة منا قد جلست هيلين وإلى جوارها طفلة في العاشرة من عمرها ، ومن حولها ثلاثة من فتيات تركيا الحديثة ، أقبلن للدراسة في باريس ، ولا غنى لمن من دراسة اللغة ، سمعتها تملي عليهن قطعة لأندريه جيد ، يصف فيها سمات الإدراك والفهم ، تجري في أساريره طفلة بكماء قام على تربيتها نفس سويسري ، حتى أدركت الأصوات وفهمت الحديث يجري من حولها « ... لقد نبضت سمائها بالحياة فجأة ، وجرى في جبينها إشراق أشبه ما يكون بالشعاع الذي يسبق الفجر في أعالي الألب والذي ترف له القمة المتوجة بالثلوج .. لم يكن ابتساما ، ولكنه لون من خواطر النفس ... لم يكن قط ما زادها في هذه اللحظة معرفة وإدراكا أكثر منه حبا وهياما ... »

قلت للسيد « لست أدري أيهما خير من الآخر : الباستير السويسري مع جرتريد ، أم السيد التركي مع هيلين ؟ » قال « الباستير من غير شك لأن جرتريد قد خرجت على يديه من الصمت إلى الإفصاح .. أما أنا فلم أصنع إلا ما يجب لها ، وما هو من حقها في الحياة ، وخير منهما جميعا الهرسكي الشاعر ، ثم أعاد إلى يده ديوانه وأخذ يترجم عن التركية :

« ليس حتما أن تنتقل النفس من النور إلى الظلمة ، لأن النور طبيعتها ففيم التحول وهي مستريحة إليه » « ومن الحتم أن تنتقل من الظلمة إلى النور ليس فقط لأنها تشعر بالغربة والإيحاش ، ولكن لأن وطنها الأول يحمي هو الآخر وعاءه »

باريس

علي شرف الدين

دكتور في الأدب الفرنسي البحت من السوربون

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة

للمجلد الاول من كتاب

وحي الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

طبع طبعاً أنيقاً على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته ثمانمائة صفحة ونيفاً . وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد